

التواصل في الخطاب القرآني قصة "مريم العذراء (ع)" أمودجاً

سودابه مظفري*^۱ (أستاذة مشاركة بفرع اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الخوارزمي، طهران)
كاوه رحيمي^۲ (طالب الدكتوراه في فرع اللغة العربية وآدابها، جامعة الخوارزمي، طهران، إيران)

DOI: [10.22034/JILR.2023.139462.1073](https://doi.org/10.22034/JILR.2023.139462.1073)

تاريخ الوصول: ۲۰۲۳/۰۷/۲۵

تاريخ دریافت: ۱۴۰۲/۰۵/۰۳

تاريخ القبول: ۲۰۲۳/۱۰/۱۴

صفحات: ۵۳-۷۱

تاريخ پذیرش: ۱۴۰۲/۰۷/۲۲

الملخص

لا ريب أن العملية التواصلية آلية من آليات البيان في الإعجاز القرآني، كما تعتبر من أهم النظريات في اللسانيات الحديثة، والقرآن كنموذج أعلى للكلام البليغ لا يزال يحظى باهتمام الباحثين واللسانيين. وبما أن الاتصال اللغوي هو موضوع شامل لجميع جوانب الحياة، والقرآن الكريم أفضل دستور وأكمل منهج لحياة البشر حتى يسير عليه في استقامة، فاخترنا القرآن الكريم لشموليته واختصاصه بأحسن القصص لتطبيق عملية التواصل فيه؛ فهذه الدراسة محاولة في تطبيق نظرية التواصل في ضوء قصة مريم العذراء في القرآن موزعة في سورتي آل عمران ومريم؛ وسبب اختيار هذه القصة يرجع إلى أنها أبلغ وأروع القصص القرآنية في خرق العادات، موجّهة في أساليبها للتأثير على المخاطب وتعاملاته واستمالة العقول وتوجيه النفوس. لقد وظّف القرآن الكريم الكثير من الآليات والتقنيات من أجل تعدي حدود التبليغ إلى الإقناع، وبما أن القصة تلعب دوراً بارزاً في التربية ولا يزال موضع عناية البشر، فقد اتخذ البارئ عزّوجلّ- القصص وسيلة من وسائل الإقناع والتأثير في كتابه العظيم، وضمن فيها أدلته وحججه على الجاحدين والمشركين. فاعتمدنا في هذا البحث على المنهج الوصفي - التحليلي، فالمنهج الوصفي كان في وصف الأحداث التي مرّت بها مريم العذراء، ثم تحليل القصة لغوياً وتبيينها من الناحية التواصلية وفق معطيات اللسانيات الحديثة، والنتائج تدلّ على احتواء قصة مريم العذراء عناصر وأركان الاتصال اللغوي، وتحقيق الأساليب اللغوية في القصة فائدة تواصلية في الجانب الحوارية.

الكلمات المفتاحية: نظرية التواصل، الخطاب القرآني، قصة مريم العذراء، اللسانيات الحديثة.

^۱ الكاتب المسؤول؛ البريد الإلكتروني: soud42_moz@khu.ac.ir

^۲ البريد الإلكتروني: rahimikaveh97@yahoo.com

تواصل در گفتمان قرآنی (مطالعه موردی: قصه مریم عذرا)

چکیده

نظریه تواصل از مهم ترین نظریات در زبانشناسی جدید به شمار می رود و از آنجا که ارتباط زبانی همه زوایای زندگی را شامل می شود و قرآن کامل ترین رهنمود برای زندگی بشر است لذا قرآن را به سبب شمولیتش در برخورداری از بهترین قصه ها جهت عملیات تطبیقی در نظریه تواصل برگزیدیم. این پژوهش کوششی در راستای تطبیق نظریه تواصل در پرتوی قصه مریم عذرا در دو سوره آل عمران و مریم است که از شگفت ترین داستانهای قرآنی در امور خارق العاده است که در رفتارهای انسان اثرگذار می باشد. قرآن کریم در راستای رسانیدن تبلیغ به مرحله اقناع مخاطب، بسیاری از تکنیک ها را بکار گرفته است از جمله قصه هایی که مشتمل بر برهان ها و اعتراضات علیه منکران و مشرکان می شود. این پژوهش به شیوه توصیفی-تحلیلی انجام می گیرد، از یک سو رخدادهایی که بر مریم (ع) گذشته را توصیف می کند و از سوی دیگر قصه را از بُعد زبانی و نظریه تواصل مطابق با داده های زبان شناسی نوین مورد تحلیل قرار می دهد؛ نتایج این پژوهش گویای این است که قصه مریم (ع) مشتمل بر مؤلفه ها و اصول ارتباط زبانی است و فواید سبک های زبانی در قصه از جنبه گفتمان را محقق می سازد.

واژگان کلیدی: نظریه تواصل، گفتمان قرآنی، قصه مریم عذرا، زبان شناسی نوین.

المقدمة

نظريّة التّواصل التي تُنسب إلى رومان جاكبسون من أهمّ النظريّات اللسانيّة الحديثة، وقد تنوعت الدراسات اللسانية ولاسيّما بعد دي سوسير، فلم يعدّ الاهتمام بنظام العلامات أو النظام النحوي فقط هو محطّ نظر اللسانيين، ولما كان القرآن رسالة شاملة وخالدة، ويشتمل على جميع عناصر العمليّة التبليغيّة، هو العلوم اللغويّة والتّواصل الذي يهتمّ بهذا النوع من الدّراسات، ولكي يحقق القرآن الكريم المقاصد السّاميّة، والغايات التّنبيلة، والمناهج القوميّة، والقيم الرّفيعة، فاعتمد أساليب التّواصل والإقناع المختلفة بتقديم الأدلة والبراهين الساطعة وسوق الحجج الدّامغة. وقع اختيارنا في الخطاب القرآني واختصاصه بأحسن القصص، لأنّ القصص هو أحد ينابيع الاستدلال لكونه يحرّك العقول ويستميل القلوب إلى غاياتها السّامية، ومن هنا اتّخذ القرآن الكريم سبيلاً للإقناع والتأثير والتبليغ، وضمن القصة الأدلة على بطلان اعتقاد المشركين وغيرهم، ثم كان اختيار قصّة مريم العذراء كنموذج في عمليّة التّواصل اللغوي لأنّها أبلغ وأروع في خرق العادات، وهو إنجاب مريم العذراء لطفلٍ من غير أب، وقد شاءت الحكمة الإلهية أن تبرز تلك المعجزة الخارقة بميلاد عيسى (ع) من أم بلا أب، لتظلل آثار القدرة الرّبانيّة ماثلة أمام الأبصار، بعظمة الواحد القهار (الصّابوني، ١٣٨٠ هـ.ش: ٢١٠/٢). هذه القصّة أعجب من قصة ميلاد يحيى لأنّها ولادة عذراء من غير بعل، وهي أغرب من ولادة عاقر من بعله الكبير في السن والمعنى اذكر يا محمّد (صلّى الله عليه وسلّم) قصة مريم العجيبة الغريبة الدّالة على كمال قدرة الله (نفسه: ٢١٣/٢)، والغرض من ذكر هذه القصّة الرّد على النصارى الذين ادّعوا ألوهية عيسى (ع)، فذكر ولادته من مريم البتول ليدلّ على بشريّته، وأعقبه بذكر ما أيّده به من المعجزات ليشير إلى رسالته، وأنّه أحد الرسل الكرام الذين أظهر الله على أيديهم خوارق العادات، وليس له شيء من أوصاف الربوبية (نفسه: ١٨٣/١). ولعلّ القصص القرآني باعتباره قسماً ومحوراً من محاور القرآن الكبرى قد اشتمل في سرده أخبار الأنبياء والرّسل والصّالحين والأُمم الغابرة على العديد من هذه الأساليب بغرض الاعتبار والاتّعاظ واستلهاهم الدّروس، على هذا الأساس ونظراً لأهميّة ومكانة نظريّة التّواصل في اللسانيّات الحديثة، بإمكاننا تطبيق نظرية التّواصل ومكوناتها وأنواعها اعتماداً على المنهج الوصفي - التحليلي، في ضوء قصّة مريم العذراء والحوارات التي دارت بينها وبين شخصيّاتها، مليئة بالقيم الغالية والنفسيّة العظيمة والأخلاق الرّاقية من الصبر والإخلاص والعفاف.

يحاول هذا البحث الإجابة عن السّؤالين الأساسيين هما:

١. ما هي مظاهر الاتّصال اللغوي في قصة «مريم العذراء»؟

٢. كيف حققت الأساليب اللغوية في هذه القصّة فائدة تواصلية في الجانب الحوارى؟

خلفية البحث

فلا يزال القرآن الكريم بجرّاً زاخراً بأنواع العلوم والمعارف، لهذا كان ولا يزال محطّ أنظار الباحثين؛ فإنّ أشرف ما يقدّمه الباحثون وأسمى ما يسعى إليه المؤلفون في بحوثهم وتأليفهم، ما كان في خدمة القرآن العظيم وعلومه الجليلة الزاهرة، على كثرة ما تحويه المكتبة الإسلامية من أسفار ضخمة وكتب نفيسة خدم بها العلماء و الباحثون كتاب الله -الجليل- ييقى القرآن زاخراً بالعجائب، حافلا بالدرر والجواهر؛ أمّا بالنسبة للدراسات التي تمحورت حول نظرية التّواصل وتطبيقها في الخطاب القرآنى، وقصّة مريم (ع) نشير إلى بعض البحوث السابقة:

- مقالة "نظرية التواصل وأبعادها في الدرس اللغويّ العربيّ" (٢٠١٤م)، بقلم دلدار غفور حمدامين ونشأت علي محمود، السّنة الثامنة عشرة، العدد الواحد، مجلة زانكو للعلوم الإنسانية، جامعة صلاح الدّين؛ تطرق الباحثان ببيان نظريّة التواصل وعناصرها السّتة: هي المرسل، المرسل إليه، الرسالة، قناة الاتّصال، المرجع والسّتن (النّظام) الذي يجري فيه الاتّصال؛ العوامل اللغويّة السّتة مع وظائفها لها أبعادها في الثّراث اللّغوي العربيّ ولاسيّما في علمى النحو والبلاغة العربيّة، تعدّ أركان نظرية التواصل التي تُنسب إلى رومان جاكسون.
- مقالة "سبك شناسي سوره مريم (ع)" (١٣٨٩هـ.ش)، كتبها محمد خاقاني ومحمد جعفر اصغري، السنة الثانية، العدد الأول، فصلية لسان مبین. تحاول هذه الدراسة معالجة ما في سورة مريم (ع) من علاقات ترابطية والتّرادف والاشتراك اللفظي والتكرار والإفراد والدلالة الصوتية مستعينة باللّسانيات والأسلوبية.
- مقالة "تحليل روایت شناختی داستان حضرت مريم(س) در قرآن کریم" (١٣٩٧هـ.ش)، كتبها أعظم السّادات وآخرون، السّنة الخامسة عشرة، العدد الثّالث، فصليّة «تحقيقات علوم قرآن و حديث» بجامعة الرّهراء؛ تناولت هذه المقالة دراسة العناصر البنيويّة والوجوه المختلفة والجمع بين هذه العناصر وكيفيّة دورها في السرد.
- رسالة "الاتّصال والتّواصل في القرآن الكريم -سورة يوسف عليه السلام نموذجاً- " (٢٠١٣-٢٠١٢م) كتبها نادية لوانس وسعيدة شادلى، جامعة آلي محند أولحاج - البويرة - الجمهورية الجزائرية، استهدفت هذه الرسالة دراسة تطبيق نظريّة التّواصل في ضوء سورة يوسف (ع)،

اختصاص المبحث الأول بسورة يوسف في القرآن الكريم، تطرقت في المبحث الثاني إلى نماذج الاتصال اللغوي و في المبحث الثالث إلى نماذج من الاتصال غير اللغوي.

على أساس الخلفية يمكن القول إن الدراسة الحاضرة تمتاز بأنها تهتم بتطبيق نظرية التواصل وعناصرها في قصة مريم العذراء (ع) أو القضايا اللغوية المتعلقة بهذه القصة في الخطاب القرآني، كما أن القصة كانت من أقوى الوسائل في الدعوة والتبليغ.

نظريّة التّواصل

بما أنّ التّواصل بوصفه ظاهرة اجتماعيّة حيويّة ويعتبر ضرورة حتميّة في تكوين المجتمع الإنسانيّ، إذ لا يمكن أن يعيش الإنسان دون أن يتّصل مع غيره، فحاجته لذلك كحاجته للهواء والماء والغذاء للمحافظة على وجوده وبقاء حياته. إذن التّواصل ظاهرة أساسيّة لتعارف النّاس واستمرار حياتهم وتقديمها، كما يقول الله - عزّ وجلّ- في هذا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات/١٣)، فالإنسان اجتماعي بطبعه، و اجتماعيّة الإنسان تقتضي التّعارف والتّعايش والتّعاون حفاظاً على البقاء والاستمرار والتّقدّم والازدهار.

تعدّدت مفاهيم التّواصل وتنوّعت مدلولاتها الثّقافيّة باختلاف المرجعيّات العلميّة وتعدّد العلماء والباحثين والدّارسين الذين تناولوا هذا المصطلح في شتى التّخصّصات؛ حيث يستخدمها مهندسون الإتّصال للإشارة إلى الهاتف والتّلفزيون والرّاديو، ويستخدمها الأطباء في الإشارة إلى الأمراض المعدية، ويستخدمها علماء علم الاجتماع في الإشارة إلى العمليّات التي يُؤثّر بها وعن طريقها الأفراد فيمن حولهم وينظر علماء علم السّياسة إلى المجتمعات على أنّها نظم اتّصال. نستنتج من هذا الكلام أنّه على الرّغم من اختلاف وتعدّد معاني ودلالات لفظة التّواصل في شتى التّخصّصات إلّا أنّها تشترك جميعاً في أمر واحد وتصبّ في إناء واحد، ألا وهو علاقة الإنسان بغيره، وارتباطه به ومشاركته له ممّا يؤكّد إجماعيّة الإنسان (مزواغي، ٢٠١١-٢٠١٢م: ٣/٢).

من الممكن أن نعد النظريّات اللغويّة الحديثة ابتداءً من دي سوسير مؤسس النظريّة النّبويّة وما تلاها من نظريات هي محاولة لمعرفة اللّغة (حدامين و على محمود، ٢٠١٤م: ١١٧)، نظرية التّواصل من أهمّ النظريّات اللّسانية الحديثة، ويعتبر رومان جاكسون من أهمّ العلماء الذين تحدّثوا عن عمليّة التّواصل من زاوية لسانية، حيث أسّس نظريّة التّواصل اللغوي انطلاقيّاً من العلاقة الوثيقة بين

اللّسانيّات ومختلف العلوم وخاصّة علم التّواصل الّذي اهتمّ به اهتماماً بالغاً باعتبار أنّ اللغة هي الوسيلة الأولى الّتي تؤسّس كلّ عمليّة تواصلية بالنّسبة للإنسانيّة جمعاء. وتمثّل عناصر الشبكة عنده في المرسل (المتكلّم أو المبدع أو الكاتب)، والمرسل إليه (السّامع، المتلقّي)، والرسالة (المحتوى، الموضوع)، والقناة (النّاقلة)، والبتّيق (المرجع)، والسنن (الرموز وقوانين الترميز) (نفسه: ٤١).

ولكي نفهم النظرية اللغوية التّواصلية فلا بدّ من أن نبيّن معنى (التواصل) لغة، فإنّ جذره (وصل) خلاف الفصل والانقطاع، والتواصل على وزن (تفاعل) لما يصدر من اثنين فصاعداً، و(تواصل) من (واصل) المتعدّي إلى مفعول واحد، وبهذا سيكون (تواصل) مكتفياً بالفاعل لأنّ المقصود منه قيام الفعل بالفاعل، فلا ينظر إلى تعلق الفعل بالمفعول هنا، لأنّ وضع (تفاعل) لنسبته إلى المشتركين فيه من غير قصد إلى ما تعلقّ به (نفسه: ١١٨).

وقد اعترف البنيويون لدي سوسير بقصّب السبق في تأسيسه لنظرية التّواصل من داخل اللسانيّات البنيوية، ثمّ جاء الباحث النفسي الألماني كارل بوهلر مبيّناً عمل دي سوسير ومكماً له، فذكر ثلاثة محاور تقوم عليها العمليّة التخاطبية وهي: المرسل (ضمير المتكلّم) والمرسل إليه (ضمير المخاطب) والموضوع، ويتولد عن المرسل الوظيفة الإنفعالية وعن المرسل إليه الوظيفة الإفهامية وعن الموضوع المرجعية، فالموضوع هو ما يصدره المرسل متوجّهاً به إلى المرسل إليه. وبناءً على أمّودج بوهلر الواضح السهل للعمليّة التّواصلية استطاع رومان جاكبسون أن يطوّر هذه المحاور ويستدلّ بسهولة على بعض الوظائف اللّسانية الإضافية، لقد انطلق جاكبسون من أساسيات بوهلر للعمليّة التخاطبية، فزاد على العوامل التخاطبية الثلاثة (المرسل والمرسل إليه والموضوع) لتكون له ستة عوامل يستلزمها التواصل اللغوي ثم جعل لكلّ عامل وظيفة مختصة به (نفسه: ١١٩).

مفهوم الخطاب

الخطاب مفهوم متعدد الجانب والمعنى، وقد اكتنفته الإبهام والغموض خاصة بسبب تنوع الحقل العمليّة والمعرفية الّتي تتصل بهذا المفهوم مثل اللّسانيّات والدراسات الأدبية والفلسفية والاجتماعية والسياسية وعلم النفس والتّاريخ والفن (مك دانل، ١٣٨٠هـ.ش: ٩). لفظه الخطاب (discoursus) مأخوذة من اللفظة الفرنسية (discours) وهي بدورها مقبسة من اللفظة اللاتينية (discursus) بمعنى الحوار والكلام (نفسه: ١٠). كان اللّساني الإنكليزي زليك هريس رائد دراسات الخطاب في (١٩٥٢م)، هو الّذي وسّع مفهوم الخطاب إلى مجال أوسع؛ بما أنّ تحديد المصطلح يقربّ الفهم الخاص بكلّ علم،

والخطاب من المصطلحات الغريبة المنطلق التي تحتاج إلى تدقيق، وللوقوف على بعض مفاهيم الخطاب نعود إلى المدونة العربية والغربية لاستقراءها وتبيين هذا المصطلح.

إذا أمعنا النظر في الثقافة العربية وأهم ما يمكن الرجوع إليه في هذا الباب في تراثنا اللغوي هو كتاب الله العظيم، لفظة "الخطاب" في القرآن الكريم ورد اثنتي عشرة مرةً بصيغ متعددة. فعلى سبيل المثال: بصيغة الفعل في هذه الآية: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخَاطِبِي فِي الْذِينِ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (هود/٣٧) وبصيغة المصدر في الآية الأخرى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلِ الْخِطَابِ﴾. (ص/٢٠) كان مفهوم الخطاب عند التهانوي هو: «توجيه الكلام نحو الغير للإفهام» (التهانوي، ١٩٧٢: ١٧٥)، وأما ابن جني في الخصائص فقد عرّف الكلام على أنه خطاب، بقوله «والخطاب هو لفظ مستقل بنفسه، مفيد لمعناه، يتّسم بالأصل الشّفهي» (ابن جني، ١٩٩٩: ٣٢)، نستنتج من هذه التعريفات أنّ التراث العربي قد تحسّس أهميّة الخطاب والدور التداولي الذي هو من أهمّ شروطه، كما تكمن فيه أهمّ الأسس للنظريات اللسانية الحديثة (شلباب، ٢٠١٦-٢٠١٥م: ١٠)؛ أمّا عند النّحاة فقد ورد اسم المفعول "المخاطب" للدلالة على طرف الخطاب الآخر الذي يوجه المرسل كلامه إليه، وذلك عند حديثهم عن المضمرات. عرّف طه عبدالرحمن الخطاب بقوله: «إنّ المنطوق به - أي الخطاب - الذي يصلح أن يكون كلاماً: هو الذي ينهض بتمام المقتضيات التّواصلية الواجبة في حقّ ما يسمّى خطاباً، إذ حدّد الخطاب أنّه كلّ منطوق به موجه إلى الغير بغرض إفهامه مقصوداً مخصوصاً» (عبد الرحمن، ٢٠١٢م: ٢١٥)، ممّا يعني أنّ الخاصية التواصلية ملازمة للخطاب الذي يتطلّب متلقياً.

أمّا إذا بحثنا عن مفهوم الخطاب في المنظور الغربي، فإنّ له تعريفات عديدة بحسب التّوجه: وقد جاء في محاضرات دي سوسير أنّ الخطاب: «يعدّ رسالة لغوية يبيّنها المتكلّم إلى المتلقّي ويفكّ رموزها»، وعرّف شولتر الخطاب بأنّه «تلك الجوانب التقويمية والتقديرية، أو الإقناعية، أو البلاغية في نصّ ما، أي في مقابل الجوانب التي تسمّى أو تشخص أو تنقل فقط» (شولتر، ١٩٩٣: ٤٨)، الخطاب: في معجم اللسانيات لجون دوبوا له ثلاثة تحديدات:

١. يعني اللغة في طور العمل، أو اللسان الذي تتكلّف بإنجازه ذات معينة، وهو هنا مرادف للكلام عند دي سوسير.

٢. وحدة توازي أو تفوق الجملة، ويتكوّن من متتالية تشكّل مرسلتها لها بداية ونهاية، وهو هنا مرادف للملفوظ.

٣. أمّا التّحديد الثالث، فهو: كلّ ملفوظ أعلى من الجملة منظورا إليه من وجهة نظر قواعد تسلسل متتاليات من الجمل (نفسه: ١٣).

قصة مريم

إنّ المتأمل في آيات القرآن الكريم يجد أسلوباً متميزاً، ألا وهو أسلوب القصة، فما من شك أنّ للقصص طريقته الخاصة في عرض الحقائق وإدخالها إلى القلوب في صورة حيّة عميقة الإيقاع، بتمثيل هذه الحقائق في صورتها الواقعية وهي تجري في الحياة البشرية، وهذا أوقع في النفس من مجرد عرض الحقائق عرضاً تجريدياً (السيد قطب، ١٩٧٢م: ٣٨٩/١). وردت قصة مريم (ع) في سورتي آل عمران ومريم بعد قصة زكريّا (ع) مباشرة وميلاد يحيى لتلازمهم، ولأنّ الأولى كانت تمهيداً للثانية وهي المرأة الوحيدة المذكور اسمها في القرآن الكريم؛ وذلك لأنّها فذة ومفردة بين نساء العالم بشيء لا يحدث ولن يحدث إلاّ لها. فهو أمر لن يتكرر ولا تستطيع امرأة أن تدعيه.

ونظراً لغرابة الحادث وضخامته فقد عزّ على فرق من الناس أن تصوّره على طبيعته وأن تدرك الحكمة في إبرازه، فجعلت تضفي على عيسى ابن مريم -عليه السّلام- صفات ألوهية، وتصوغ حول مولده الخرافات والأساطير، وتعكس الحكمة من خلقه على هذا النحو العجيب، -وهي إثبات القدرة الإلهية التي لا تنقيد- تعكسها فتشوه عقيدة التوحيد. والقرآن في هذه السورة يقصّ كيف وقعت هذه العجيبة ويبرز دلالتها الحقيقية، وينفي تلك الخرافات والأساطير المزخرفة. والسياق يخرج القصة في مشاهد مثيرة، حافلة بالعواطف والإنفعالات التي تمزج من يقرؤها هزاً كما هو يشهدها (السيد قطب، ١٩٧٢م: ٢٣٠٥/٤).

وبما أنّ القصص القرآني يهدف إلى الوعظ نجد التكرار فيه، فتارة تأتي القصة للبرهان وتارة أخرى للتبيين، فتحصل بما مقاصد الخطبة والوعظ وبالتالي ترسخ في الأذهان، وتظهر البلاغة بتعدد الأساليب في التعبير عن غرض واحد، وهو وجه من أوجه الإعجاز. نحاول أن نبين هذا الجانب الإعجازي في الخطاب القرآني وفق نظرية التواصل.

عناصر العملية التّواصلية في قصة "مريم العذراء" (ع)

تعتمد عملية التّواصل على مجموعة من العناصر المتصلة والمتداخلة والمشاركة مع ظروف نفسية واجتماعية تؤثر في النهاية على انتقال الأفكار والمعلومات بين الأفراد، وهذه العناصر هي:

الف) المرسل^١

هو منشىء الرسالة الذي يؤثّر في الآخرين «المتلقين» بشكل معيّن عن طريق عرض أفكار أو معلومات أو آراء أو غيرها (مزواغي، ٢٠١٢-٢٠١١م: ١٦)، والمرسل: "هو الذي يصوغ فكرة في شكل رموز معيّنة ويبعثها في شكل معلومات أو أفكار أو آراء أو معان إلى الآخرين" (بدوي، ١٩٨٥م: ٤٤)، ويعتمد نجاح الرسالة في تبليغ المعنى على حسن اختيار الرموز من قبل المرسل ليعبّر عن فكرته بدقة ووضوح. قال الله -تعالى- في قصة مريم (ع): ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ (مريم/١٧) فمصدر الإرسال في هذه الآية الكريمة هو الله - سبحانه وتعالى- وما دلّ على ذلك هو ضمير الجمع للمتكلّم الذي يعود على ذاته العليّة (نون الجماعة في «أرسلنا، روحنا»)، وهناك الكثير من الآيات في القرآن الكريم التي تدلّ على المرسل والتي لا يتسع المقام لذكرها كلّها، والاختلاف يكمن في شخصيّة المرسل في حدّ ذاته، فمثلا قوله -تعالى- في آية أخرى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ (مريم/١٩)، فالمرسل هنا يتمثل في روح الأمين.

ب) المتلقّي^٢

وهو مستقبل الرسالة وهو طرف ضروريّ وعنصر أساسيّ في العمليّة التّواصلية سواء أكان هذا المتلقّي فردا أو جماعة أو مؤسّسة أو جمهورا أو جماهيريا. والذي يتلقّى محاولات التّأثير الصّادرة عن المرسل التي على إثرها يتجاوب ويتفاعل معه فأثناء الحديث أو الكلام السّامع هو المتّهم وأثناء الكتابة الفارسي هو المتّهم، باعتبار كلّ منهما متلقّ، وقد يكون هو نفسه المرسل، كما هو الحال في التّواصل الدّاتي (مزواغي، ٢٠١٢-٢٠١١: ١٧)، قال -سبحانه وتعالى-: ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ (مريم/٢١)، فالمستقبل في هذه الآية النّاس كافّة، لأنّ الإسلام رسالة لكلّ البشر ورحمة للعالمين. أى كذلك الأمر حكم ربّك بمجيء الغلام منك وإن لم يكن لك زوج، فإنّ ذلك على الله سهل يسير، ليكون مجيئه دلالة للنّاس على قدرتنا العجيبة ورحمة لهم ببعثه نبياّ يهتدون بإرشاده (الصّابوني، ١٣٨٠ هـ.ش: ٢/٢١٤)، وهذا الأمر الخارق الذي لا تتصور مريم (ع) وقوعه، هيّن على الله. وأنّه أراد أن يجعل هذا الحادث العجيب آية للنّاس، وعلامة على وجوده وقدرته

¹ Emetteur

² Recepteur

وحرية إرادته، ورحمة لبني إسرائيل أولاً وللبشرية جميعاً، يبرز هذا الحادث الذي يقودهم إلى معرفة الله وعبادته وابتغاء رضاه (سيد قطب، ١٩٧٢: ٤/٢٣٠٦). وقال -عز وجل-: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ (مريم/١٦)، فالتلقي في هذه الآية الكريمة هو الرسول - عليه الصلاة والسلام - والمعنى اذكر يا محمد قصة مريم العجبية الغريبة الدالة على كمال قدرة الله أي حين تنحّت واعتزلت أهلها في مكان شرقي بيت المقدس لتفرغ لعبادة الله (الصّابوني، ١٣٨٠ش: ٢١٣/٢).

ج) الرسالة^١

هي أساس ولُبّ العمليّة التّواصلية، ونعني بالرسالة المعلومات أو الآراء أو المشاعر أو الاتجاهات التي يرغب القائم بالتواصل في نقلها إلى الآخرين عبر الرموز التي قد تكون صوتية مثل الكلام أو صورية مثل الكتابة أو حركية مثل الإشارات أو قد تكون خليطة من الأشكال والرموز، وفي هذا الشأن يُقال: «الرسالة هي جملة من البيان يحملها القائم بما ليؤديها إلى غيره» (العسكري، ١٩٦٣م: ٢٨٤)، وهناك ثلاثة أمور يجب أخذها بعين الاعتبار بالنسبة للرسالة، ألا وهي: كود الرسالة (الرموز) - مضمون الرسالة - معالجة الرسالة.

أ- الشفرة^٢

وهي عبارة عن مجموعة من الرموز توضع في ترتيب معين فتشكل للمتلقي مغزى يفهمه اذا كانت الرسالة معبّرة عن مضمونها، وذات معنى محدّد يتناسب مع مقصد المرسل، ومثل ذلك في القرآن الكريم ما جاء في قصة مريم (ع): ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾، ﴿يَا أُخْتُ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمَّكَ بَغِيًّا﴾، ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْهَدِ صَبِيًّا﴾ (مريم: ٢٧-٢٩)؛ أدركت مريم (ع) بعد حملها كيف واجهت مع قومها و أوحى الله لها فأما إذا واجهت أحداً فأعنيه بطريقة غير الكلام، أنت نذرت للرحمن صوماً عن حديث النَّاسِ وانقطعت إليه للعبادة. ولا تجبي أحداً عن سؤال، إنَّ ألسنتهم لتنتطق بالتفريع والتأنيب: ﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ أي فظيلاً مستنكراً. ثمَّ يتحول السخط إلى تمكّم مرير في خطابهم: «يا أخت هارون» النبي الذي تولّى الهيكل هو وذريته من بعده والذي تنتسبين إليه بعبادتك وانقطاعك لخدمة الهيكل. فيا للمفارقة بين تلك النسبة التي تنتسبينها وذلك الفعل الذي تقارفينه! ﴿مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ

¹ Message

² Code

سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُكٍ بَعِيًّا»، حَتَّى تَأْتِي بِهَذِهِ الْفَعْلَةَ الَّتِي لَا يَأْتِيهَا إِلَّا بَنَاتُ آبَاءِ السُّوءِ وَالْأَمَهَاتِ الْبَغَايَا! وتنفذ مريم وصية الطفل العجيب الّتي لقتها إياها: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ فماذا نقول في العجب والغيب الّذي ساورهم وهم يرون عذراء توجّههم بطفل؛ ثمّ تبجح فتسخر ممن يستنكرون فعلتها فتصمت وتشير إلى الطفل ليسألوه عن سرّها (السّيّد قطب، ١٩٧٢: ٤/٢٠٣٧).

ب- المضمون^١

يعرف المضمون بأنّه مادّة الرّسالة أو محتواها والّذي يختاره القائم بالتواصل ليعبّر عن هدفه و مغزاه، فهو العبارات الّتي تقال والمعلومات الّتي تقدّم والإستنتاجات الّتي تستنبط والأحكام الّتي تقترح؛ قال - عزّوجلّ- ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا»، ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا»، ﴿وَوَرًّا بِوَالِدِيّ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ (مريم: ٣١ و٣٢)؛ ما يستخلص من الآيات أنّ سيّدنا عيسى (ع) فصلّ مضمون رسالته إلى قومه حين كلّمهم وقال: أنا عبدالله خلقتني بقدرته من دون أب، وقضى ربّي أن يؤتيني الإنجيل ويجعلني نبيا، وإنّما جاء بلفظ الماضي لإفادة تحقّقه، فإنّ ما حكم به الله أزلاّ لأبد أن يقع، وأوصاني بالصّلاة والزكاة مدّة حياتي، وهكذا دافع عن والدته، وأقام الحجّة على المشركين والجاحدين، فلم يبق لهم إلّا إتباع طريق الهدى بعد أن تبيّن لهم الحقّ، أو الضلالّ باتباع هوى الشيطان (مزواغي، ٢٠١٢-٢٠١١: ١٩).

ج- معالجة الرّسالة^٢

تتمثّل في الطّريقة أو الكيفيّة الّتي يقدّم بها المرسل مضمون رسالته وفي اختيار الرّموز والشّفرة المناسبة لها، فقد يختار المرسل رسالة معينة ويحدّد فيها المعاني والأدلة الّتي يريدّها، ولا يذكر كلّ الحقائق أو التّفصيل فيها، حيث يترك للمتلقّي مهمّة الرّسالة. وهكذا تتحقّق أهداف كلّ فرد في اتّخاذ القرارات الأفضل (نفسه)، قال تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنْتِ لِكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (آل عمران/٣٧)، في هذه الآية الكريمة ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ يدلّ قوله على الإيجاز بالحذف ولم يذكر من التّفصيل، بل ركّز على القيم والعبر فيها، أي أنّه عالج ما هو هامّ ومستهدف في الرّسالة، أي كانت مريم ملازمة بيت المقدس للخدمة، وكانت

¹ Content

² Traitement de Message

تتعبد بمكان تتخذها لها محراباً، وكان زكرياً يتعهد تعبدها فيرى كرامة لها وجود أثمار عندها في غير وجود صنفها، و﴿كُلَّمَا﴾ مركبة من (كلّ) الذي هو اسم لعموم ما يضاف إليه، و (ما) الظرفية وصلتها المقدرة بالمصدر، والتقدير: كلّ وقت دخول زكرياً عليها وجد عندها رزقاً، وانتصب كلّ على النيابة عن المفعول فيه، و(أنتى) استفهام عن المكان. أى من أين لك هذا. فلذلك أجابت مريم بـ «من عند الله»، واستفهام زكرياً عن الرزق لأنه في غير إبانها. وجملة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ من كلام مريم المحكي. والحساب في قوله «بغير حساب» بمعنى الحصر، لأنّ الحساب يقتضي حصر الشيء المحسوب بحيث لا يزيد ولا ينقص، فالمعنى إنّ الله يرزق من يريد رزقه بما لا يعرف مقداره لأنه موكول إلى فضل الله (ابن عاشور، ١٩٨٤م: ٢٣٦/٣).

الوسيلة (القناة)^١

الوسيلة هي الوسيط لنقل الرسالة من المرسل إلى المرسل إليه، وقد تكون الوسيلة سمعية مثل: الخطب والمحاضرات والإذاعة، أو بصرية كما في المطبوعات (كتب، صحف، مجلات، صور، ملصقات...)، أو سمعية بصرية مثل التلفزيون أو السينما أو الفيديو، أو قد تكون الحواس الإنسانية من سمع وبصر وشم وذوق ولمس كما هو الحال في التواصل الذاتي (مزواغي، ٢٠١٢-٢٠١١: ١٩). قال تعالى: ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾، ﴿وَهَزِي إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقُطُ عَلَيْكَ رُطْبًا غَنِيًّا﴾، ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا...﴾ (مريم: ٢٤-٢٦)، ضمير الرفع المستتر في «ناداها» عائد إلى ما عاد عليه الضمير الغائب في «فحلماته»، أي ناداها المولود، وهذا إرهاب ليعسى وكرامة لأمه -عليهما السلام-، وقيد «من تحتها» لتحقيق ذلك وإفادة أنه ناداها عند وضعه قبل أن ترفعه مبادرة للتسليّة والبشارة وتصويراً لتلك الحالة التي هي حالة تمام اتّصال الصبيّ بأمّه. فائدة قوله ﴿وَهَزِي إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ أن يكون إثمار الجذع اليابس رُطْبًا ببركة تحريكها إيّاه، وتلك كرامة أخرى لها. وضمّن ﴿وَهَزِي﴾ معنى قرّبي أو أدني، فعدى بـ (إلى)، أى حرّكي جذع النخلة وقرّبيه يدنُ إليك ويلن بعد اليبس ويُسقط عليك رطبا، والمعنى: قرّبي إلى نفسك جذع النخلة. ﴿غَنِيًّا﴾ فاعيل بمعنى المفعول، أي مجتنى، وهو كناية عن حدثان سقوطه، أى عن طراوته ولم يكن من الرطب المخبوء من قبل، لأنّ الرطب متى كان أقرب عهداً بنخلته كان أطيب طعماً. وجملة ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ تشمل هناك

¹ Canal

العیش والأنس بالطفل المولود. وفي كونه قرّة عين كناية عن ضمان سلامته ونباهة شأنه (ابن عاشور، ١٩٨٤م: ١٦/٨٩).

التشويش^١

هو عائق أو مانع يتدخل إثر انتقال الرسالة من المرسل إلى المتلقي فيقلل من فعاليتها أو يدفع إلى تغيير معناها محدثاً سوء الفهم، والتأويل الخاطيء يجعل الرسالة تنحرف عن هدفها، فالتشويش يعيق عملية التواصل لأنه يقلل من فعالية الرسالة (مزواغي، ٢٠١٢-٢٠١١: ٢٢)، ومن أمثلة ذلك في الخطاب القرآني قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (آل عمران: ٣٦)، نذرت امرأة عمران واسمها «حنّة بنت فاقود» ما يحمله في بطنها مخلصاً للعبادة والخدمة، ولما ولدتها قالت متحيرة ومعتذرة: يا ربّ إنّها أنثى وظننت أنّه لم يكن مقبولاً في النذر إلا الذكور، فقبل الله مريم (ع) وقال: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾ أي والله أعلم بالشئ الذي وضعت أو لم يقل الله لمريم (ع) ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ﴾ أي ليس الذكر الذي طلبته كالأنثى التي وهبتها بل هذه أفضل، والجملتان معترضتان من كلامه -تعالى- تعظيماً لشأن هذه المولودة وما علّق بها من عظام الأمور وجعلها وابنها آية للعالمين. لقد عوذت أمها من الشيطان وهي حامل بما وهى بداية سيطرة الشيطان على الإنسان، لأن الشيطان على أن الميلاد بداية جديدة للخلق، حيث إنه فشل مع آدم، فيحاول مع كل بنيه من البداية. فكان الشيطان عائقاً حقيقياً في العملية التواصلية (أكرم، ٢٠٠٨م: ٨٠).

رجع الصدى^٢

يقصد إعادة المعلومات للمرسل حتى يستطيع أن يقرّر ما إذا كانت الرسالة حققت أهدافها أم لم تحقق. كما أنّ رجع الصدى يشجع المرسل على الاستمرار في بثّ رسالته ويقنعه بأنّها أدّت مهمتها وحققت هدفها، أو العكس هنا ينبغي على المرسل أن يعيد تشكيل وبناء رسالته من جديد (مكاوي وسيد، ٢٠٠٢م: ٢٣). ومن أمثلة ذلك تضمنت قصة مريم العذراء (ع) رجع الصدى الداخلي وهو ردّ فعل داخليّ يصدر عن الفرد عندما يتأثر برسالة معيّنة مثل الحديث النفسي الداخليّ أو مناجاة الذات، (مزواغي، ٢٠١٢-٢٠١١: ٢٤) قال -تعالى-: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا

¹ Noise

² Feedback

لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴿٢٣﴾ (مريم/٢٣)، ونلاحظ في معنى ﴿فَأَجَاءَهَا﴾ أى: ألبأها واضطرها، أى جاءها فجأة، وجاءها مصاحب بالآلام المعتادة فجلست تحت جذع النخلة. ها هي مريم الشابة الصغيرة تواجه الآلام الجسدية مع المحن النفسية، ويفاجئها المخاض ويلجئها إلى جذع النخلة تستند عليه وتتشبث به من آلام الولادة، لا تعرف شيئاً ولا معين لها في شيء، لأأم معها ولأخت ولاخالة ولاعمه ولاجارة بجانب شعورها الداخلي بعظم ما هي فيه وما ستقدم عليه من أحمال قومها لها وهى الشريفة العفيفة الطاهرة. ها هي مريم تعاني كل ذلك فتصرخ في نفسها قائلة: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾، أى: لم أكن شيئاً يُذكر (أكرم، ٢٠٠٨-١٤٢٩: ٩١).

أنواع التّواصل

«يعتبر المهتمون بالتواصل الإنساني كلّ فهم منظم ثابت يعرّف به الإنسان عن فكرة تجول بخاطره أو إحساس يجيش بصدوره، إنّما هو لغة قائمة بذاتها» (الطنوبي، ٢٠٠١م: ٤٣). قصة مريم العذراء (ع) مشتملة على نوعين من التّواصل وسنذكر لكل منهما نموذجاً.

التواصل اللغوي

كلّ أنواع الاتّصال التي يستخدم فيها اللفظ يعتبر هذا النوع من التواصل، واللفظ كوسيلة لنقل الرّسالة من المرسل إلى المتلقّي، ويكون هذا اللفظ منطوقاً فيدرکه المستقبل بحاسة السّمع؛ جاء في معجم مصطلحات الإعلام أنّ التّواصل اللغوي: «هو الإتصال الذي يعتمد على وسائل تتكوّن أساساً من كلمات مكتوبة أو غير مكتوبة في توصيل الفكرة أو المعنى مثل النّشرات، التّقارير، الخطابات، المحادثات التلفزيونيّة والمؤتمرات» (زكي، ١٩٨٥: ٤٩). فلغة الكلام والكتابة إذن هي أساس من التّواصل، وخير دليل على ذلك أنّ القرآن الكريم اعتمد التّواصل اللغوي في تبليغ الرّسالة لأنّه خطاب بين الله ورسوله، وإذا نظرنا إلى فحوى الخطاب القرآنيّ (عقيدة- تشريع- قصص ..) نجدّه قائماً على التّواصل اللغوي (في أساليب الأمر والنّهي، الترغيب والترهيب، الحوار والجدل)، واللغة أداة رمزيّة يتمّ بواسطتها التّعبير عن أفكار الإنسان ومشاعره ونقلها إلى الآخرين.

ولذلك تعدّ اللغة أهمّ وسيلة يتحقق بها التّواصل بين النّاس، وهذا يعني أنّ الفكر بحاجة إلى الألفاظ اللغويّة وتركيباتها حتّى يتمّ انتقاله بين النّاس، كما تساعدنا على التّفكير بطريقة أكثر دقّة ووضوحاً، والتّواصل اللغوي عند عبد الحميد يحيى هو الذي يعتمد على الكلمات أو الألفاظ التي تنطق

بها، واختیار هذه الكلمات التي قد تعبر عن أشياء مادية أو معنوية والتي لا تحمل إلا معنى واحداً، وقد تحمل أكثر من معنى، وتتحدد تلك المعاني من الإطار أو الوقت الذي تستعمل فيه (السياق) (مزواغي، ٢٠١٢-٢٠١١م: ٢٩/٣٠). والتواصل اللغوي يتمثل في حوار الملائكة مع مريم العذراء (ع) في قوله -تعالى-: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾، ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾، ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَا مَهْمُ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾، ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾، ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾، ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾. (آل عمران: ٤٢-٤٧) قوله ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ﴾ عطف على جملة «إذ قالت امرأة عمران» وانتقل من ذكر أم مريم إلى ذكر مريم نفسها. وتكرّر فعل «اصطفاك» لأنّ الاصطفاء الأوّل اصطفاء ذاتي وهو من الإطناب. وهو جعلها منزهة زكية، والثاني بمعنى التفضيل على الغير. ونساء العالمين نساء زمانها، أو نساء كل الأزمنة. وتكليم الملائكة والاصطفاء يدلان على نبوءتها (ابن عاشور، ١٩٤٨م: ٢٤٤).

وإعادة النداء في قول الملائكة «يا مريم اقنتي» لقصد الإعجاب بالها. لأنّ النداء الأوّل كفى في تحصيل المقصود من إقبالها لسماع كلام الملائكة، فكان النداء الثاني مستعملاً في مجرد التنبيه الذي ينتقل منه إلى لازمه وهو التنويه بهذه الحالة والإعجاب بها، والقنوت ملازمة العبادة. وقوله «مع الرّاكعين» إذن لها بالصلاة مع الجماعة، وهذه خصوصية لها من بين نساء إسرائيل إظهارا لمعنى ارتفاعها عن بقية النساء، ولذلك جاءت لفظة "الرّاكعين" بصيغة جماعة المذكر.

وهذا الخطاب مقدمة للخطاب الذي بعده وهو «يا مريم إنّ الله يبشرك بكلمة منه» لقصد تأنيبها بالخبر الموالي، لأنّه لما يجلب حاصله لها حزناً وسوء حالة بين الناس، مهّد له بما يجلب إليها مسرة، ويوقنها بأنّها اختصت بعناية الله، فلا جرم أن تعلم بأنّ الله جاعل لها مخرجا وأنّه لا يخزيها.

وقوله «وما كنت لديهم» إيماء إلى خلوّ كتبهم عن بعض ذلك، وإلا لقال: وما كنت تتلو كتبهم مثل «وما كنت تتلوا من قبله من كتاب»، أى إنّك تخبرهم عن أحوالهم كأنك كنت لديهم. أشارت الآية إلى أنّهم تنازعوا في كفالة مريم حين ولدتها أمها حنة، إذ كانت يتيمة كما تقدم، فهذا الامتنان يخبر بأنّ كفالة زكرياء مريم (ع) كانت بعد الاستقسام وفيه تنبيه على تنافسهم في كفالتها.

قوله ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ﴾ بدل اشتمال من جملة «وإذ قالت الملائكة يا مریم إنّ الله اصطفاك» قصد منه التكریر لتكمیل المثلّول بعد الجملة المعترضة. ولكونه بدلا لم يعطف على إذ قالت الأول وتقدّم الكلام على يبشرك. والمراد من وصف عیسی بالكلمة كلمة خاصة غیر معنّاة فی تكوين الجنین أی بدون الأسباب المعتادة. وقوله منه "من" للابتداء المجازي، أی بدون واسطة أسباب النسل المعتادة وقد دلّ على ذلك قوله «إذا قضی أمرًا». والوجه ذو الوجهة وهی: التقدّم على الأمثال، والكرامة بین القوم، وهی وصف مشتق من الوجه للإنسان وهو أفضل أعضائه الظاهرة منه، وأجمعها لوسائل الإدراك وتصريف الأعمال، فأطلق الوجه على أوّل الشیء على طريقة الاستعارة الشائعة (نفسه: ٢٤٦)، ويقولون: هو وجه القوم أی سیّدهم والمقدّم بينهم. واشتق من هذا الإسم فعل وجّه بضم الجیم ككرم، فجاء من وجیه صفةً مشبّهةً، فوجیه النَّاس هو المكرّم بينهم ومقبول الكلمة فیهم (نفسه: ٢٤٧).

قوله «قالت ربّ» جملة معترضة، من كلامها، بین كلام الملائكة. والنداء للتحسر وليس للخطاب: لأنّ اللّذي كلّمها هو الملك، وهی قد توجّهت إلى الله. والاستفهام فی قولها "أنتی يكون لي ولد" للإنكار والتعجّب، ولذلك أجیب جوابین: أحدهما "كذلك الله یخلق ما یشاء" فهو أزال إنكارها، والثاني "إذا قضی أمرًا إلخ" لرفع تعجّبها (نفسه: ٢٤٩).

التواصل غیر اللغوي

وهو اعتماد علامات أخرى دالة من غیر اللغة المنطوقة أو المكتوبة المتعارف والمتفق عليها في مجتمع ما، كلغة الحركات والإشارات والإيماءات والتعجيرات الفيزيولوجية التي تطرأ على الإنسان نتیجة انفعال معین، يقول نايف خرما: «إنّ تعريف بعضهم بأنّ اللغة وسيلة للإتصال بین البشر ليس تعريفا دقيقا تماما، فمن ناحية يمكن أن يحصل التّواصل بین البشر بوسائل غير لغويّة تتراوح بین ردود الفعل العفوي كاحمرار الوجه دلالة على الخجل، والعبوس تعبيرا عن الغضب، والإيحاء المعتمد بأحد أجزاء الوجه والوسائل الكثيرة الأخرى كالرسوم والتّقود والأعداء .. والقصيدة الشعريّة أو القطعة الموسيقية ..» (مزواغي، ٢٠١٢-٢٠١١م: ٣٢)، وبعض الأحيان يطلق على هذا النوع من التّواصل باللغة الصّامتة أو السّاكنة، وخير مثال له حوار مریم (ع) مع قومها حين أتت قومها بعد أن طهرت من النفاس تحمل ولدها عیسی (ع) على يديها قال الله -تعالى-: ﴿... فَأَمَّا تَرِيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾، ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾، ﴿يَا

أُخْتُ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءَ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا»، ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ (مریم: ٢٦-٢٩)؛ فَالتَّوَّاصِلُ غَيْرُ اللَّفْظِيِّ فِي هَذَا الْحَوَارِ يَتِمُّثَلُ فِي اسْتِعْمَالِ لَفْظَةِ ﴿صَوْمًا﴾ وَإِنْ لَقِيتَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي: "إِنِّي نَذَرْتُ صَوْمًا" فَحَذَفْتَ جَمَلَةً لِلْقَرِينَةِ. وَهُوَ الْإِيمَاءُ إِلَى أُمَّهَا نَذَرْتُ صَوْمًا مَجَازًا بِقَرِينَةِ قَوْلِهِ ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ فَلَمْرَادُ أَنْ تُوَدِّي ذَلِكَ بِإِشَارَةِ إِلَى أُمَّهَا نَذَرْتُ صَوْمًا بِأَنْ تُشِيرَ إِشَارَةً تَدُلُّ عَلَى الْإِنْقِطَاعِ عَنِ الْأَكْلِ، وَإِشَارَةٌ تَدُلُّ عَلَى أُمَّهَا لَا تَتَكَلَّمُ لِأَجْلِ ذَلِكَ (ابن عاشور، ١٩٨٤: ٩٣/١٦)، وَأَيْضًا يَتِمُّثَلُ فِي لَفْظَةِ ﴿فَأَشَارَتْ﴾ عِنْدَمَا جَاءَتْ إِلَى قَوْمِهَا وَرَأَوْهَا وَابْنَهَا أَعْظَمُوا أَمْرَهَا وَاسْتَنْكَرُوهُ وَقَالُوا لَهَا: لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا عَظِيمًا مُنْكَرًا وَيَا شَبِيهَةَ هَارُونَ فِي الصَّلَاحِ وَالْعِبَادَةِ، مَا كَانَ أَبُوكَ رَجُلًا فَاجِرًا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ سَيِّئَةً فَكَيْفَ صَدَرَ هَذَا مِنْكَ وَأَنْتِ مِنْ بَيْتِ طَاهِرٍ مَعْرُوفٍ بِالصَّلَاحِ وَالْعِبَادَةِ؟ فِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ لَمْ تُجِبْهُمْ مَرْيَمُ (ع) وَأَشَارَتْ إِلَى عَيْسَى (ع) لِيُكَلِّمُوهُ وَيَسْأَلُوهُ (الصَّابُونِي، ١٣٨١ هـ.ش: ٢١٥/٢).

التَّنَاجُحُ

فِي دِرَاسَتِنَا هَذِهِ تَطَرَّقْنَا إِلَى تَطْبِيقِ نَظَرِيَّةِ التَّوَّاصِلِ فِي قِصَّةِ مَرْيَمَ وَتَوَصَّلْنَا إِلَى التَّنَاجُحِ التَّالِيَةِ: نَظَرِيَّةُ التَّوَّاصِلِ الَّتِي تُنْسَبُ إِلَى رُومَانَ جَاكَبْسُونَ مِنْ أَهَمِّ النِّظَرِيَّاتِ اللَّسَانِيَّةِ الْحَدِيثَةِ وَلَهَا مَكَانَةٌ عَظِيمَةٌ فِي الدِّرَاسَاتِ اللَّغَوِيَّةِ وَلا سِيَّمَا الدِّرَاسَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الَّتِي تُظْهِرُ لَنَا جَوَانِبَ مِنَ الْإِعْجَازِ الْقُرْآنِيِّ، لَقَدْاهْتَمَّ الْبَاحِثُونَ وَالدَّرَاسُونَ بِهَذِهِ النِّظَرِيَّةِ أَهْتِمَامًا بِالْغَا ضَمَّنَ الْبَحْثُ فِي الْخُطَابِ الْقُرْآنِيِّ عُمُومًا، وَالْقِصَصِ الْقُرْآنِيِّ عَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ.

دِرَاسَةُ نَظَرِيَّةِ التَّوَّاصِلِ فِي قِصَّةِ مَرْيَمَ بَرَزَتْ لَنَا كَيْفِيَّةً إِظْهَارَ اللَّهِ -تَعَالَى- إِدْلَتَهُ فِي الرَّدِّ عَلَى النَّصَارِيِّ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْجَاهِدِينَ مِنَ الْأَقْوَالِ الشَّنِيعَةِ اقْتَرَفُوهَا لِمَرْيَمَ (ع) وَمِنَ الْخِرَافَاتِ وَالْأَسَاطِيرِ الْمَزْعُومَةِ حَوْلَ مَوْلِدِ عَيْسَى (ع) لِإِقْنَاعِهِمْ، وَعَاجَلْنَا مَكُونَاتِ سِتَّةَ لِنَظَرِيَّةِ التَّوَّاصِلِ فِي قِصَّةِ "مَرْيَمَ الْعِذْرَاءِ (ع)" وَنَوْعِينَ مِنَ التَّوَّاصِلِ اللَّغَوِيِّ وَغَيْرِ اللَّغَوِيِّ وَعَرَضْنَا نَمُودَجَ لِكُلِّ مِنْهُمَا.

قِصَّةُ مَرْيَمَ وَعَيْسَى -عَلَيْهِمَا السَّلَامُ- هِيَ أْبْلَغُ وَأَرْوَعُ الْقِصَصِ الْقُرْآنِيَّةِ فِي خِرْقِ الْعَادَاتِ، الَّتِي إِظْهَرَتْ الْمَعْجِزَةَ الْمَعْجِزَةَ بِمِيلَادِ عَيْسَى (ع)، لِتُظَلِّ آثارَ الْقُدْرَةِ الرَّبَّانِيَّةِ مَائِلَةً أَمَامَ الْأَبْصَارِ بِعَظْمَةِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ وَحَافِلَةَ الْعَبْرِ وَالْقِيمِ الْأَخْلَاقِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ وَاسْتَلْهَامِ لِلدَّرُوسِ. دِرَاسَةُ نَظَرِيَّةِ التَّوَّاصِلِ فِي قِصَّةِ مَرْيَمَ (ع) دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ عُلُومَ الْقُرْآنِ بَحْرٌ زَاخِرٌ لَا تَنْتَهِي عُلُومُهُ وَعَجَائِبُهُ وَلَا يَنْضُبُ مَعِينُهُ، وَأَنْ لَا يُمْكِنُ

للعقل البشريّ الإحاطة بما جميعاً، وأنَّ البحث والاكتشاف فيها مستمرّ ومتواصل ولا ينتهي إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وفي النّهاية هذه الدراسة تشير إلى أنّ القرآن وتفسيره لا يحدّد بزمن خاصّ ولا يقابل محدود، بل يجري مع الزّمان والتقدّم العلميّ والأدبيّ، فيجب أن يهتمّ المفسّرون وعلماء القرآن بتفسير جديد عصريّ للقرآن متماشياً مع التقدم العلميّ والحضارة الثقافيّة.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

إبن جني، (١٩٩٩م). الخصائص. ط٤، مصر: طبع الهيئة العامّة للكتاب.
 إبن عاشور، محمد طاهر (١٩٨٤م). تفسير التّحرير والتّنوير. تونس: الدار التونسية للنشر.
 أكرم، رضا (٢٠٠٨م). بالقرآن نجدد الحياة قراءة تدرّبية في سورة مريم. ط١، شركة ألفا للنشر والإنتاج الفنيّ.

بدوي، أحمد زكي (١٩٨٥م). معجم مصطلحات الإعلام. القاهرة: دار الكتب المصريّ.
 التّهانوي، (١٩٧٢م). كشاف اصطلاحات الفنون. ج٢، مصر: طبع الهيئة العامّة للكتاب.
 حمدامين، دلدارغفور و على محمود، نشأت (٢٠١٤م). نظرية التواصل وأبعادها في الدرس اللغويّ العربيّ.
 مجلّة زانكو للعلوم الإنسانيّة لجامعة صلاح الدّين، إربيل، قسم اللغة العربيّة كلية اللغات جامعة

صلاح الدين، أربيل، صص ١١٧-١٣٤

السّيّد قطب، (١٩٧٢م). في ظلال القرآن. ط١، القاهرة: دار الشروق.
 شلباب، جمال (٢٠١٦-٢٠١٥م). إستراتيجيّة الإقناع في الخطاب القرآني (السّور المكّيّة أمودجا)، أطروحة ماجستير، جامعة محمّد بوضياف، الجزائر.

شولتر، روبرت (١٩٩٣م). السيميائية والتأوي. ترجمة: سعيد الغانمي، ط١، بيروت: المركز الثقافيّ.
 الصّابوني، محمّد علي (١٣٨٠ هـ. ش، ١٤٢٢ هـ. ق). صفوة التّفاسير. ط٢، طهران: نشر إحسان.
 الطنوبي، محمد عمر (٢٠٠١م). نظريّات الاتّصال. ط١، مصر: مكتبة الإشعاع الفنيّة.
 عبد الرحمن، طه (٢٠١٢م). اللسان والميزان أو التكوثر العقلي. ط٣، المغرب: المركز الثقافيّ.
 العسكريّ، أبوהלلال (١٩٦٣م). الفروق في اللغة. ط٤، بيروت: دار الآفاق الجديدة.
 مزواغي، أحمد (٢٠١١-٢٠١٢م). أساليب الإقناع في سورة يوسف. ماجستير، جامعة وهران، الجزائر.

کاو، حسن عماد، سید، لیلی حسین (٢٠٠٢م). **الاتصال ونظریاته المعاصرة**. ط:٣، القاهرة: الدار المصرية اللبنانیة.

مک دانل، دایان (١٣٨٠هـ.ش). **مقدمه ای بر نظریه های گفتمان**. ترجمه: حسینعلی نوزری، چاپ: اول، تهران: فرهنگ گفتمان.

نادیة لوانس، سعیدة شادلی (٢٠١٢/٢٠١٣م). **الاتصال والتواصل في القرآن الكريم سورة يوسف عليه السلام نموذجاً**، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الليسانس في اللغة والأدب العربي، جامعة آلي محند أولحاج، الجمهورية الجزائرية.